روضة الحكايات!!
(٩)

بارَكَ اللّه لهُ في وقته!!

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف: ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس: ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

ماهو السَّبب ؟!

ليلة الخميس الماضي ، مرضَ (أبو حمزة) مرضاً شديداً ، مما اضطَرَّ أولادَه لأن ينقلوه إلىٰ المشفىٰ ، وبعد إجراء الفحص اللازم له ، تبيّن أن الأمر ليس خطيراً جداً ، إنما هو عبارةٌ عن أزمة مفاجئةٍ ، ولعل سببها الرئيسيَّ حزنُ أبي حمزة علىٰ وفاة عمّه...

وبعد ساعات أُعيدَ الرجلُ إلىٰ البيت ، وكان الخبرُ قد وصل إلىٰ أقاربِه وجيرانه وأحبابه ، فهُرِعوا إلى بيته ليطمئنوا عن صحته... ، واجتمعوا مع زوجته... ، وطَمْأَنتْهم عنه... ، وغادر بعضهم ، بينما بقي الآخرون...

ولما وصل (أبو حمزة) إلىٰ البيت ، ووجدَ هؤلاء... بادَرَهم مباشرةً بسؤال معروفٍ : من الذي أخبركم بهذه السرعة ؟

قال (أبو نورس) : نحن نعيش عَصْرَ السرعةِ ، وعصر التسابقِ في نقلِ الأخبار ، وأنتَ رجلٌ معروف ، ولك محبّون كثيرون ، وعلاقاتك مع الناس طيّبة و ممتازة... فكيف لا نأتي مسرعين للاطمئنانِ عليك ؟

... ابتسمَ (أبو حمزة) ثم شكرَهم جميعاً ، وسأل الله تعالىٰ ألا يُصيبَهم مكروهٌ أبداً... .

ولما استلقىٰ علىٰ سريرِه ، ناولتْهُ ابنتُه (منىٰ) كأساً من عصير البرتقال والليمون ، فشربها ثم حَمِدَ الله تعالىٰ وقال : آه! ما أجملَ الصحةَ والعافيةَ! وكما قالوا : (الصحة تاجٌ علىٰ رؤوس الأصحّاء لا يراه إلا المرضىٰ..!) .

ودار نقاشٌ... وكلامٌ عام ، حول بعض الأمور الاجتماعية و المعيشة...

لكن المحور الرئيسي الذي تركّز الحديثُ حولَه ، هو سؤالٌ طرحَه (أبو نوّاف) : ما هو السبب الرئيسي في عدم شعور الناس بالوقت ؟!

وطُرحتْ آراءٌ متعددةٌ ومختلفة ، لكن كان هناك تقاربٌ في الأجوبة وملخّصها : لقد فُقد من المجتمعات ما يُسمّىٰ (البركة)...

فهناك من الناس من يعيش أكثرَ من سبعين سنةً ، ثم تنظر فتراه لم يُنتج شيئاً ، كل ما هنالك : طعام وشراب.. وذهاب وإياب..!!

وتسمع عن أُناسٍ عاشوا سنواتٍ قليلةً ومع ذلك فقد أَبدعوا.. وصنّفوا.. واخترعوا.. واكتشفوا... ، فما هو السببُ في ذلك ؟!

... وأجاب (أبو رائد) : إنها البركةُ في

الوقت ، حقاً.. ، ولقد قرأت عن الإمام النوويِّ أنه عاشَ خمساً وأربعين سنةً فقط ، ومع ذلك فقد بلغَ العُلـىٰ ، وكتـب وصنّـف وحقّـق.. ودرّس و... ، بينما نرىٰ في واقعنا شباباً تجاوزوا الأربعين من العمر ، ومع ذلك ترىٰ الواحدَ منهم لم يقدّمْ شيئاً ، حتىٰ علىٰ الصعيدِ الشخصيّ ، فقد تجده لم يتزوجْ بعدُ ، أو لم يُكملْ دراستَه ، أو...!!

مما يدلّ علىٰ فقدان سرِّ البركة...

* * *

فمن هو الإمام النووي

وراقت فكرةُ كتابةِ ترجمةٍ وافية عن حياة النووي... في خَلَدِ (خالد)... فعاد إلىٰ بيته.. وأخذ القلمَ... وكتبَ به بعضَ الأفكارِ الرئيسيةِ المتعلّقةِ بالترجمة مع مخططٍ صغيرٍ للبحث...

... وفي صبيحة اليوم التالي ، انطلق إلىٰ المكتبةِ العامةِ... وراح يبحثُ في المراجعِ والمصادرِ عن حياة النووي ، حتىٰ إذا كان المساءُ عاد إلىٰ بيته فرحاً مسروراً ، علىٰ الرغم من التعبِ الشديدِ... وفي السهرة رتَّبَ أوراقَه ووضع عناوينَ مناسبةً ، ثم انطلق إلىٰ بيت أستاذه (عثمان) وعَرَضَ العملَ عليه... وبعد مشاورات كان دورُه في إلقاء المحاضرة ، وكان ما يلي :

أيها السادةُ! حديثُنا اليوم يدورُ حول أحدِ عمالقةِ الفقه والحديث.. حولَ رجلٍ عاش طيلةَ حياتِه للعلمِ والتعليم . إنه لم يتجاوزْ من العمر الخامسةَ والأربعين ، لكنه أَنتجَ الكثيرَ الكثير ،... إنه الإمام النووي رحمةُ الله عليه .

في آخر عهدِ الأيوبيين ، وبعد اندحارِ التتارِ والصليبيين من بلادِ الشامِ ، استتبّ الأمن واستقرّ ، وعادت الأمورُ إلىٰ ما كانت عليه... ، وظهر علماءُ أجلاء ، أمثال : الرافعي ، وابن الصلاح ، وابن المعلم ، وابن عساكر ،وابن القفطي ، وابن العديم ، وابن خلّكان ، وغيرهم...

وقتئذٍ وُلد النووي في (نوى) من محافظة درعا في سورية ، وكان ذلك في سنة (٦٣١هـ) ، وكان والدُه يعملُ في دكّانٍ متواضعٍ ، لكنه كان محبّاً للعلم والعلماء...

ولما بلغ النووي الثامنةَ عشرة من عمره ، صحبه والدُه إلىٰ دمشق ، والتقىٰ هناك بكبار العلماء ، وخاصة في الجامع الأموي... .

وتلقّىٰ العلمَ الشرعيَّ.. وعلومَ اللغة العربية عن كثير من العلماء ، حتىٰ أصبح عالماً كبيراً ، وصار مرجعاً يُشار إليه بالبَنانِ!

* * *

طارَ النومُ من عينَيه!!

والعجيب في حياة النووي ، أنه انكبّ علىٰ تحصيلِ العلمِ ، حتىٰ نسيَ الأكلَ والشرابَ والنومَ... بل الزواجَ أيضاً!!

وكما قال الإمامُ الذهبي عنه : (.. وضُرب به المثلُ في إنكبابه علىٰ طلبِ العلم ، ليلاً ونهاراً ، وهَجْرِه النومَ إلا من غلبة ، وضَبْطِ أوقاتِه بلزومِ الدرس أو الكتابة أو المطالعة أو التردّدِ علىٰ الشيوخ)!!

بل روي عنه بعضُ الأقوال التي تبدو غريبةً وعجيبة في أيامنا هذه! من ذلك قول النووي عن نفسه :... (ولقد بقيت سنتين لم أضعْ جنبي إلىٰ الأرض)!!

إذاً : كيف... ومتىٰ... كان ينام ؟!

سأله البدرُ بن جماعة عن نومه ، فابتسم... . ثم قال : وكيف أنامُ والله قال في القرآن الكريم : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

والنبي ﷺ مدح المنشغلين بالعلم فقال : « ... .وإن الملائكة لَتَضَعُ أجنحتَها لطالب العلم رضا بما يصنع » .

حتىٰ أعمال التطوُّع ، فهي أقلّ ثواباً من ثواب العلم ، مِصْداقُ ذلك قول أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : (... بابٌ من العلم نتعلّمه ، أحبُّ إلينا من ألف ركعة تطوُّع . وباب من العلم نعلّمه ـ عُمل به أو لم يُعمل ـ أحبُّ إلينا من مئة ركعة تطوّعاً) ثم التفت إلىٰ ابن جماعة وقال :

(إذا غلبني النوم استندتُ إلىٰ الكتب لحظةً وأنتبه)!!!

وأما عن برنامجه اليومي ، فذاك أمرٌ فيه العجب العجاب .

كان يقرأ كلَّ يوم اثني عشر درساً علىٰ المشايخ شرحاً وتصحيحاً ، درسين في كتاب (الوسيط) ، وثالثاً في كتاب (المهذّب) ، ودرساً في كتاب الجمع بين الصحيحين ، وخامساً في صحيح مسلم ، ودرساً في كتاب (اللّمع) لابن جنّي في النحو ، ودرساً في (إصلاح المنطق) لابن السكّيت في اللغةِ ، ودرساً في التصريف ، ودرساً في أصول الفقه ، ودرساً في التوحيدِ...

ثم قال النووي : وكنت أعلّق جميعَ ما يتعلّق بها من شرح مُشْكِلٍ ، وإيضاحِ عبارة ، وضَبْطِ لغةٍ . وبارك الله لي في وقتي واشتغالي ، وأعانني عليه!!

* * *

تلك آثارهم تدلّ عليهم!!

تابع خالد الحكاية قائلاً :

وهكذا برعَ النووي في كثيرٍ من العلوم ، أهمها : الفقه ، وعلوم الحديث...

وها هي غالبية مصنفاته بين أيدينا اليوم ، وما أكثرَ المنتفعين بها! وأهمها :

(شرح صحيح مسلم) و(روضة الطالبين) و(رياض الصالحين من كلام سيّد المرسلين) و(المنهاج) و(الأذكار المنتخبة من كلام سيّد الأبرار) و(التبيان في آداب حملة القرآن) و(بستان العارفين) و(المجموع شرح المهذب) و(تهذيب الأسماء واللغات) وغيرها... .

هذا ، إضافة إلىٰ الإفتاء والتدريس ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و... . لكن إذا عُرف السبب بَطَلَ العجب ، فالنووي قد طلّق الدنيا ثلاثاً لا رَجْعَةَ فيها ، حيث ترك ما فيها للذين يتسابقون عليها ، ووَرِعَ ورعاً شديداً ، وأَكْثَرَ من الوقوف عند الآيات القرآنية التي تتحدث عن وعيدِ اللهِ في الآخرة ، وأَكْثَرَ أيضاً من صيامِ النافلة ، وقَنِعَ بالقوتِ القليل ، حتىٰ قيل عنه : (لقد ترك جميعَ مَلاذِّ الدنيا من المأكول ، إلا ما يأتيه به أبوه من كعك يابس وتين حوراني ، وتَرَكَ الفواكه جميعها... ، وكان لا يأكل في اليوم والليلة سوىٰ أكلة واحدة بعد العشاء الأخير ، ولا يشرب إلا شربة واحدة عند السَّحَر)!!

* * *

في ذمّة الله

وفي أواخر حياته عاد الإمامُ إلىٰ بلدِه (نوى) ، واستقرّ به الحال ، حتىٰ إذا ما كانت سنة (٦٧٦هـ) دخل عليه أحدُ أحبابِه ، فلما نظر إليه النووي أنشد قائلاً :

بشائر قلبي في قدومي عليهمُ
ويا لَسروري يوم سَيْري إليهمُ
وفي رحلتي يصفو مُقامي وحبّذا
مُقامٌ بـه حَـطُّ الـرِّحـالِ إليهـمُ
ولا زاد لي إلا يقيني بأنهم لهم
كـرمٌ يغنـي الـوفـودَ عليهـمُ

وليلة الجمعة من تلكم السنة أسلم النووي

الروحَ إلىٰ خالقِها ، فحزنَ عليه المسلمون ، وصلَّوا عليه صلاةَ الغائبِ في أكثر المساجد.. ، ثم دفن في بلدته .

... ووجدوا مكتوباً بخطّ يده :

أمـوت ويبقـىٰ كـلُّ مـا قـد كتبتُـه

فياليتَ مَنْ يقرأْ كتابي دعا ليا

لعـــلَّ إلهـــي أن يَمـــنَّ بلطفِـــه

ويرحمَ تقصيري وسوءَ فعاليا

رحمـه الله ، وأسكنـه فسيـح جنـانـه ، وآخـر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *